الحركة النِّسْويّة في تركيا بعد ١٩٨٠

□ آكسو بورا
ترجمه عن التركيّة: بكر صدقي

عاشت تركيا بعد العام ١٩٨٠ مرحلتها الأكثرَ عقمًا من زاوية نظر الفكر السياسيّ. من بين أسباب هذا العقم أنّ الانقلاب العسكريّ في ١٩٨٠/٩/١٢ دمّر ميدانَ السياسة على وجه التقريب، وحوّلَ العمل السياسيّ إلى جريمة: فهو لم يكتفِ بسجن أعضاء الأحزاب السياسيّة، بل سَجَنَ النقابيين وقادةَ المنظّمات الاجتماعيّة الديمقراطيّة كذلك. لكنّ أسبابَ العقم المذكور لا يستنفدُها الانقلابُ العسكريّ، إذ لعب إفلاسُ الواقعيّة الاشتراكيّة دوره أيضًا في رسم أطر النقاشات السياسيّة.

نمت الحركةُ النسْويّة بقفزة غير متوقّعة داخل هذه البيئة العقيمة. فالنسْويّة، التي وُصفتْ في أوائل الثمانينيّات بأنّها «نزوةُ النساء البورجوازيّات،» وقيل إنّها لن تنمو في هذه التربة غير الملائمة، لم تكتفِ بالنموّ بل أصبحت المعارضةَ الأكثرَ ديناميّةً وقوةً في تركيا. والحقّ إنّ معاملة النِّسْويّة وكأنّها «عنصرٌ دخيلٌ» تعود إلى جهلٍ بالواقع الاجتماعيّ، وبالتاريخ، وإلى العجز عن تحليلهما. فالحركة النسويّة وُجدتْ منذ الحقبة العثمانيّة، وشهدتْ مراحلَ صعودٍ ومراحلَ انحدار، لكنها لم تغبْ أبدًا في الميدان الاجتماعيّ. الجديد في الثمانينيّات هو أنها عادت إلى الظهور كصوتٍ معارض.

❖ ❖ ❖

العنصر الذي يتمّ تجاهلُه عمومًا في تيّار الحداثة التركيّة منذ عصر «التنظيمات» هو نضالُ النساء من أجل الحقّ والمساواة؛ بل إنّ هذا النضال حَمَلَ، منذ أوائل القرن العشرين، اسمَه الصحيح «الحركة النسْويّة» (feminism). غير أنّ تمفصلَ الحركة النسويّة مع الحداثة والنزعة القوميّة، لتستقرَّ معهما داخل خطاب الإيديولوجيا الرسميّة، أدّى إلى تراجع نضال النساء من أجل المساواة في الحقوق، وإلى غرق تاريخه في النسيان. فمنذ منتصف العشرينيّات، رأت النساءُ نضالهنّ جزءًا من برنامج التنمية والتمدّن، الأمرُ الذي سهّلَ النظر إلى الحركة النسويّة بوصفها رسالةً تمدينيّةً، أكثرَ من كونها حركةً سياسيّةً ومعارضة.

قبل منعطف ١٩٨٠، كانت هناك مبادراتٌ لتنظيم الحركة النسائيّة في إطار المعارضة اليساريّة، لكنها لم تتجاوزْ كونها منظّماتٍ نسائيّةً تابعةً للأحزاب السياسيّة بالمفهوم التقليديّ. بعد الانقلاب العسكريّ احتاج الأمرُ إلى وقتٍ طويلٍ كي يحدث اللقاءُ بين جهود نساءٍ يتحدّرن عمومًا من خلفيّات يساريّة لفتح مساحةٍ سياسيّةٍ جديدةٍ لنشاطهنّ، مع شقيقاتهنّ القديمات في تاريخ الحركة النسويّة. كان على أولئك النسوة أن يبذلن جهودًا كبيرةً لتحقيق مشروعيّة نضال النساء من أجل الحريّة والمساواة واستقلاليّته، كأولويّة. في النصف الأول من الثمانينيّات كانت المجموعاتُ النسويّة تعقد اجتماعاتِها في البيوت، وكانت موضوعاتُ النقاش تتركّز على استقلاليّة الحركة النسويّة وعلاقتها باليسار. في الوقت نفسه، حاولن نقل الدروس المستخلصة من ماضيهنّ وتجاربهنّ السياسيّة إلى هذه الحركة التي كانت قد تبرعمتْ للتوّ. لم يكن نمطُ التنظيم المركزيّ والتراتبيّ مناسبًا لحركةٍ تحرريّة. فكان عليهنّ أن يبتكرن أشكالاً وطرائقَ للتنظيم تحطّم كلَّ تراتبيّة، وتلغي القيادة المركزيّة التي تكتم الأنفاسَ.

من هذا المنظور، يمكن القولُ إنّ عقد الثمانينيّات بالنسبة إلى الحركة النسويّة كان عقدَ تنقيبٍ وتجريبٍ واستكشاف. وإذا نظرنا إلى الأنشطة النسويّة في تلك المرحلة (كحملة الإبرة البنفسجيّة والمسيرة ضدّ العنف المنزليّ)، فسوف نرى، من جهة، أنّ موضوعاتٍ كانت خارج اهتمام الحركات السياسيّة، كالعنف المنزليّ والتحرّش، باتت على جدول الأعمال؛ وسنرى، من جهةٍ أخرى، ابتكارَ وسائل شديدةِ التنوّع ولافتةٍ للأنظار ومختلفةٍ عن الفعاليّات المعارضة المألوفة.

هناك بعدٌ آخر لكون الثمانينيّات عقدَ بحثٍ واستكشاف، ألا وهو الأهميّة الكبيرة لمجموعات الارتقاء بالوعي داخل الحركة النسويّة. فقد عاشت الحركةُ تجربةَ الربط المباشر بين السياسة وحياةِ الفرد، أيْ تجربةَ اكتشاف كلّ فردٍ في الحركة العلاقةَ

من تظاهرات نسويّة في تركيا.

المباشرةَ بين التحليل المجرّد والعامّ للامساواة بين الجنسين أو علاقات الاستغلال أو القمع، وبين حياته وخبرته الخاصّتيْن. كانت هذه تجربةً غايةً في الأهميّة غطّت المرحلة التالية التي ستَشْهد الانتشارَ السريع والمأسسةَ والنموّ.

❖ ❖ ❖

عقدُ التسعينيّات هو المرحلة التي ستشهد المأسسة والتنوّع معًا. وإذا كان هذا التنوّع يعني كثرةَ التيّارات داخل الحركة، فهو يشمل كذلك كثرة الموضوعات التي اهتمّت بها وتنوّعَها. القطبان الرئيسان المحدِّدان في المشهد السياسيّ التركيّ في التسعينيّات، عنيتُ بهما الحركتين الكرديّة والإسلاميّة، تركا أثرَهما في تنوّع الحركة النسائيّة أيضًا. النساء اللواتي كنّ خارج الحركة النسْويّة في الثمانينيّات طوّرنَ مطالبَ نسويّة في إطار هاتين الحركتين، ثم شكّلتْ تلك المطالبُ محورًا انتظمنَ حوله. وهذا الأمر لم يؤدّ إلى تغيير هاتين الحركتين فحسب، بل إلى تغيير الحركة النسويّة العامّة أيضًا. فقد كسرت الناشطاتُ الكرديّاتُ ذكوريّةَ الحركة القوميّة الكرديّة، وتركيّةَ الحركة النسويّة في تركيا معًا. أما «النسويّات المسلمات» فقد واجهنَ السمةَ النخبويّةَ النازعةَ إلى الهيمنة في الحركة النسويّة، وحاولنَ إثباتَ عدم وجود تعارضٍ بين إيمانهنّ الدينيّ ورفضهنّ للإذلال الذكوريّ. كما أنّ الموضوعين اللذين هيمنا على المشهد السياسيّ العامّ بشيفرتَي «النزعة الانفصاليّة» و«الرجعيّة» حرّكا بين النساء أيضًا جدالاتٍ حادّةً وانشقاقات.

في التسعينيّات ابتعدت الحركةُ النسْويّة إلى حدّ كبير عن كونها حركةً تنتمي إلى المدن الكبرى. فقد انتظمت النساءُ في المنظّمات النسائيّة في ديار بكر وأنطاليا وأضنة ومرسين وعينتاب وصمصون وأسكي شهير وغيرها. تحرّكنَ معًا وشكّلنَ مجموعاتِ ضغط، كما حدث بمناسبة التعديلات على القانون المدنيّ. وتمثّلَ أحدُ عناصر التوسّع في الحركة بالمشروعات. هذا النمط الجديد، الذي أُطلق عليه «نسويّة المشروعات،» انتشر في جميع أنحاء العالم في التسعينيّات، إذ حلّت محلّ الأهداف السياسيّة مشاريعُ تقنيّة، وحلّ محلّ العضو الحزبيّ «الناشطُ المدنيّ.» وتعرّض هذا النمطُ الجديد لانتقادات كثيرة. وبالفعل كان الهوسُ بالمشاريع، بل قل «وباء المشاريع،» يشكو أمراضًا خطيرة، قبل كلّ شيء لأنه يَدْعم تحويلَ السياسة من ممارسة تحرريّة إلى أداةٍ تقنيّة. ولكنْ ينبغي الاعترافُ بأنّ توسّعَ الحركة النسائيّة، المكوّنة أصلاً من نساء الطبقة الوسطى المدينيّة المتعلّمات، واكتشافَها قنواتِ اتصالٍ بالنساء «الأخريات،» قد تحقّقا إلى حدّ كبير بفضل المشاريع.

إذا ألقينا نظرةً على الحركة النسويّة في عقد التسعينيّات بعين الطير، فسوف نرى قبل كلّ شيء أنها ازدادت مأسسةً وتوسّعًا وتنوّعًا. المناقشات التي هيمنتْ على هذه المرحلة عكستْ بدورها هذين التوسّع والتنوّع، فغطّت مروحةً واسعةً من الموضوعات، كمسألة الهويّة والسياسات الاجتماعيّة.

❖ ❖ ❖

شهد العقدُ الأول من القرن الحادي والعشرين، بالتوازي مع الأشكال والابتكارات الجديدة للممارسة السياسيّة في تركيا والعالم، تنوّعًا وتجدّدًا للشباب في الحركة النسويّة. فإلى جانب حفاظها على حيويّتها كحركة مستقلة، فإنّها لعبتْ دورًا مؤثِّرًا في جميع الحركات السياسيّة، كما في ميدان السياسات الحكوميّة، وقامت بتغييرها. بل إنّ مشكلة اللامساواة بين الجنسين وَجدتْ لنفسها مكانًا في أكثر الخطابات السياسيّة محافظةً. وتحوّل تحسينُ موقع المرأة الاجتماعيّ إلى إحدى أولويّات الحركات السياسيّة.

ما الذي يمكن أن نقوله، في ختام العقد الأول من القرن الجديد، عن تاريخ الحركة النسويّة القصير جدًا والغنيّ جدًا في الوقت نفسه؟ سوف نرى أنّ الخطاب النسويّ انتشر بسرعةٍ كبيرةٍ، وترك آثارًا عميقة، ولو كان ذلك بترجمته إلى لغات السياسة المختلفة. ولقد خلقتْ عمليّة «الترجمة» هذه قلقًا أدّى إلى ميلٍ يزداد قوةً إلى «العودة إلى المصادر الصحيحة» في الحركة النسويّة. وسوف نرى قيامَ علاقات دوليّة للحركة النسويّة، من خلال قنواتٍ شديدة التنوّع. وسوف نرى أيضًا أنّ النساء انخرطن في منظّمات، ليس فقط في عددٍ من المدن الكبرى، بل في كلّ أنحاء تركيا تقريبًا.

هذا الانتشار لم تظهرْ آثارُه بوضوحٍ بعدُ على السياسات المحليّة، ولكنْ سيظهر في غضون وقت قصير. وهو قد كَشَفَ عن ضرورة البحث عن أشكال جديدة ومتنوّعة وخلاّقة لربط التجارب المحليّة الفرديّة للنساء بالخطّ العامّ للحركة النسويّة.

وسنلاحظ أنّ الحركة النسويّة التركيّة تستمرّ في كونها حركةً شابّة، بخلاف قريناتها في الدول الأوروبيّة. وسنلاحظ قيامَ علاقاتٍ وثيقةٍ بين الحركة النسويّة وحركة LGBTT (المثليّات والمثليين وثنائيّي الجنس والمتحوّلين جنسيًا والمتعدّين جنسيًا) وما ينشأ عن ذلك من بدائلَ مهمّةٍ تتعلّق بالسياسات الجنسيّة التي طالما كانت عرضةً للإهمال.

❖ ❖ ❖

ليس من السهل التقاطُ صورة، ولو للحظة محدّدة، من حركةٍ بهذا التنوّع والديناميّة والقدرة على التحوّل. فلو جمّدْنا هذه الحركة لحظةً واحدة، فلن نتمكّن من رؤية التأثيرات المتبادلة والتيّارات المتدفّقة والتحوّلات التي لم تكتملْ بعد. وهذه الأمور هي كلّ شيء بالنسبة إلى حركةٍ تستحقّ فعلاً اسم «الحركة.»

يمكننا القول، باختصار، إنّ مغامرةً عمرُها ربعُ قرن ما زالت مستمرّةً من غير تباطؤ، ومن غير أن تفقد حماستها وإثارتها للاهتمام، كمصدر إلهامٍ لنفسها، ولجميع المعارضين أيضًا.

أكسو بورا
أكاديميّة نسْويّة.